Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى نـوحُ باكٍ ولا تـرنُّم شادى

وأبو العلاء يفتتح القصيدة بأن نوح الباكى وغناء الفرح متشابهان فى أنهما لا ينفعان الإنسان أى نفع، وكأنهما يتساويان فى المعنى والدلالة. ولا يلبث أن يصرخ فى البيت الثانى بماكنى عنه، فصوت النعى المحزن بالموت كصوت الغناء المطرب. وبعبارة أخرى صراخ الفراق للميت كالغناء الفرح لأى بشرى كالبشرى بالمولود. وما أسرع ما تنقضى حياته وينقلب هذا الغناء عويلاً وتفجعًا وصراخًا حزينًا، وكأن الغناء الفرح ببشرى أى مولود يحمل فى أطوائه الحزن الموعود. وتتسع صورة الموت فى نفس أبى العلاء، فإذا الأرض على رُحْبها مقبرة كبرى للناس، وما أديمها - فى رأيه - - إلا خيوط منسوجة من أجسادهم. ويسخر ممن يسيرون فيها سير زهو وخيلاء، كأنهم لا يعرفون أنهم يسيرون على ما بلى من عظام الآباء والأجداد. وإن الإنسان لتضيق به الرقع الظاهرة على سطح الأرض، وحتى الرقعة الباطنة، فكم من لحد يضم موتى كثيرين، بل موتى متضادّين من الخيار والأشرار، وكأنما كُتب على الإنسان أن لا يجد شيئًا من الراحة حتى بعد موته. ويعجب أبو العلاء من أن الإنسان مع ما ينزل به من العناء المضنى فى دنياه لا يزال يتمنى المزيد من العمر والحياة. ويتسع أبو العلاء بتصويره لمأساة الحياة ناثرًا ما لا يحصى من التأملات فى الكون والوجود، مما استحال به شعره إلى غذاء فلسفى رائع، وإنه ليعيش فى جيلنا كما عاش فى الأجيال السابقة معيشة فكرية خصبة، بل قل معيشة شبابّة، بل لعلّها أنضر شبابًا منها فى زمن أبى العلاء بفضل الدراسات الكثيرة التى كُتبت حول أبى العلاء وشعره وفلسفته حتى اليوم مما يجعل معرفتنا به وبخواطره وأفكاره أدقّ وأعمق وأوسع مما كان يتصوّر معاصروه.

وبجانب هذا النسيج الشعرى الرائع الذى يتعمق الحياة الإنسانية وهمومها والكون والوجود وطلاسمها يلقانا عند الأسلاف نسيج شعرى لا يقل عنه روعة، ونقصد أناشيد الحب الإلهى عند المتصوفة وما يذيعون فيها من وجد ماتنى جِذْوته مشتعلة فى صدورهم، واصلين كلال ليلهم بكلال نهارهم فى التجرد والعبادة